7

التفاعل التسلسلي الكبير

كانت بداية سنة 1000م مناسبة لإجراء احتفالات كبيرة في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم تكن بداية الألفية الجديدة هي السبب الوحيد وراء الاحتفالات. فخلال ما يقرب الخمسمائة سنة استمر البرابرة القادمون من وراء الحدود الشرقية والشمالية للإمبراطوريَّة الرومانيَّة القديمة في شنّ غارات عنيفة على مجموعات السكَّان العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. ولكن، وبمرور الوقت، فقدت الغارات جِدّتها وتحوّل البرابرة السابقون من غزاة غرباء ليصبحوا جزءاً من السكَّان. فقد استقرّوا وتزوّجوا وكوَّنوا العائلات، كما فعل اللومبارديون النشيطون في شمال إيطاليا. ومما لا شك فيه بأن الحروب في أوروبا استمرت بشكل أَو بآخر على مرّ العصور، ولكن على الأقل توقف خطر غزوات البرابرة المرعب بشكل نهائي. ومن المؤكّد أن النورمانديين الذين غزوا بريطانيا سنة 1066 كانوا على درجة من الحضارة أرقى بكثير من أسلافهم الإسكندنافيين الأجلاف الذين جاءوا إلى فرنسا قادمين من إسكندنافيا.

وقد هيأت تلك التطورات الظروف المناسبة للقيام بخطوات رئيسيَّة في مجالات استخدام الذهب، وبخاصة في تعزيز التجارة وفي عالم المال. وخلال هذه العملية، أصبح الذَّهب الأداة الأكثر تفوقاً في مجال إدارة القوة الاقتصادية.

وبمرور الوقت برز الدور الاستراتيجي للذهب لدرجة أن الصراع في سبيل تأمين مصادر كافية منه أصبح يحرِّض الملوك والأُمم على القيام بأعمال جليلة وبخيانات مأساوية في السنوات التي أعقبت ذلك.

إنَّ تكاثر عدد الكاتدرائيات الضخمة التي بُنيت في كل أنحاء أوروبا خلال السنوات الثلاثمائة الأولى التي تلت الاحتفال بالألفية الأولى (1000م)، يُعد دليلاً واضحاً على الإشراق الذي بدأ يغلِّف الحياة في أوروبا. فخلال الفترة ما بين سنتي 1100 ـ 1200 فقط تم بناء أكثر من ثمانين كاتدرائية في فرنسا، بما فيها نوتردام وشارترز، إضافة إلى بناء خمسمائة دير وعشرة آلاف أبرشية وكنيسة. وفي بريطانيا، أُنشئت كاتدرائيات ديرهام وكانتربيري وإيلي، كما بُنيت في إسبانيا كاتدرائيات بورغوس وطليطلة وسانتياغو دي كومبوستيلا، وفي إيطاليا وصقلية شُيدت الكاتدرائيات في البندقية وفلورنسا وسيينا وباليرمو. كما تم إنشاء جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وساليرنو، وظهرت أشهر الأعمال الأدبية، مثل: السيد وأغنيات نيبيلانغن والقصائد الملحمية الفرنسيَّة «أناشيد البطولة» وأسطورة الملك آرثر. كانت فترة حَكَم فيها ملوك عظماء ـ رجال من نوع هنري الثاني في بريطانيا وفريدريك باربا روسا في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة وفيليب أغسطس في فرنسا[1]. أما أكثر النماذج شعبية، فكان الفرسان الذين برعوا في فنون الفروسيَّة والقدِّيس لويس المعروف بقيادته الأخلاقية التي يشوبها التديّن العميق.

تُعتبر الزيادة في عدد السكان هي الأهم من بين التطورات التي حصلت. صحيح أنّ عدداً قليلاً من النّاس كانوا يتعرضون للقتل، ولكنّ هذا ليس هو السبب الوحيد في ازدياء عدد السّكان، فضمن بيئة مسالمة كانت أعداد أكبر من الأطفال تبقى على قيد الحياة بعد الولادة. ففي باريس، مثلاً، ازداد عدد

السكان من مجرد مدينة صغيرة تحيط بجزيرة القديس لويس سنة 1100 إلى مدينة كبيرة كاملة تضم ما يقارب الخمسين ألفاً سنة 1215[2]. إنَّ النِّسب العالية للنمو السكاني لا تعني بالضرورة تدني مستويات المعيشة. ففي القرن الثاني عشر، تزايدت إمكانيات التخصّص بسبب تزايد عدد السكان الذي يسمح لعدد أكبر من الأشخاص بتكريس وقتهم للدراسة والفنون والبحث، وكان هذا التزايد هو الدافع وراء توفر المصالح المترابطة التي عادة ما توفرها المدن المأهولة بسكان يشتغلون في أعمال متباينة[3].

شكَّلت الحملات الصليبية ذروة الحيوية والتفاؤل اللذين ميَّزا هذه المرحلة، تلك المغامرة الكبرى التي جرت أحداثها في العصور الوسطى. فاعتباراً من سنة 1095 ولغاية سنة 1450 قامت جحافل من الأوروبيين ـ كثيراً ما كانت تضم نساء إلى جانب الرجال، وأحياناً تضمّ أطفالاً أيضاً ـ بالسير أو بالإبحار إلى القسطنطينيَّة أو إلى آسيا الصغرى، برغم إعادة الأراضي المقدسة إلى أحضان المسيحية. ولا شك بأن تلك الحملات قد شكَّلت في بعض الأحيان تعبيراً إيجابياً قوياً عن الإيمان، ولكنها في غالب الأحيان لم تَعْدُ كونها هروباً من ملل العيش في المدن الصغرى والأرياف تحدوه رؤى المجد أو حتى أحلام أكثر حيوية تتعلَّق بالثروات وبالكنوز التي سيجري الاستيلاء عليها والعودة بها إلى الوطن.

وخلال العقد الأول من القرن الرابع عشر فَقَدَ هدف ذبح الكفار جاذبيته وذلك لدى ازدهار التجارة والتبادل الفكري مع العرب. كما أن طُرق الملاحة والنقل عند العرب جعلت بالإمكان الحصول على المنسوجات الحريريَّة والمقصَّبة والتوابل والحمضيات وأقمشة الستائر الشرقية البديعة. وصار الأمراء ورجال الدين، الذين كان أسلافهم يقنعون بجدران جرداء وأرضيات عارية إلاَّ

من البُسُط القذرة، يصرّون على اقتناء القصور ذات القناطر المذهبة، وكسوتها بالستائر والأرائك والمطرزات وفرش أرضياتها بالسجاد الشرقي[4]. لم يكن كل ما تعلّمه الأوروبيون من العرب قد جاء به العرب أنفسهم، لكن العرب كانوا قد استطاعوا تجميع قدر هام من معارف الهنود والصينيين واستخدامه بالشكل الأمثل. وتلك المجموعة من العوامل المؤثِّرة هي التي دفعت بماركو بولو للإنطلاق سنة 1271 في رحلته الشهيرة صوب الهند والصين.

فرضت الحملات الصليبيَّة متطلّبات ماليَّة ضخمة على تركيبة ماليَّة كانت ما تزال بسيطة. فبالإضافة لتكاليف المؤن والمعدَّات كان لا بدّ من إطعام الجنود وكسوتهم وتدبير مأوى لهم ودفع رواتبهم بعملة مقبولة في المناطق التي تمّ الاستيلاء عليها، حيث شكَّل الذَّهب أساساً لكل العملات وحيث كان الجيش يضم من الرجال الذين تدفعهم الحماسة الدينيَّة والشهامة والفروسيَّة أقل بكثير مما يضم من المغامرين والمرتزقة. كما أنَّه كثيراً ما تطلّب الوضع دفع فديات بعملة ذهبيَّة لتحرير الأَسرى، والسفن التي كانت تبحر باتجاه الشرق محمَّلة بالجنود والمؤن، كانت تفضّل تحميل شحنات بضائع بأَسعار مخفضة بدل الإبحار فارغة في رحلة العودة إلى أوروبا، مما شجَّع على إيجاد حركة استيراد ضخمة للسلع الجميلة من بلاد العرب، وهذا بدوره كان يتطلَّب دفعات تتمّ في غالبيتها بالذَّهب.

جاء معظم الذهب الذي استخدمه الصليبيون من الأراضي المقدسة نفسها، مما خفَّف وطأة الحاجة إلى استيراد الذَّهب من أوروبا. وقد عدَّد البروفيسور أندرو واطسون، في تقرير قدَّمه سنة 1967 إلى جمعية التاريخ الاقتصادي، الكثير من مصادر الذَّهب المحليَّة المتنوِّعة، مثل «الإعانات التي كان إمبراطور القسطنطينيَّة يدفعها للفرنكيين، والإتاوات المفروضة على الحكَّام العرب الذين حاولوا اتّقاء شر المسيحيين... والنهب، كالمصابيح الذَّهبيَّة، البالغ عددها عشرون مصباحاً، وكانت تزن 20,000 مثقال، والتي انتزعها تانكرد

من كنيسة القدس. . . والضرائب التي كانت تُفرض على المناطق المحتلَّة حيث كان الذَّهب منذ القدم هو أساس العملة». ويؤكِّد واطسون أن تلك المبالغ كانت «ضخمة بالفعل، رغم أنَّها كانت تُنفق بسرعة». ففي سنة 1191، مثلاً، اشترى فرسان الهيكل جزيرة قبرص بمبلغ مائة ألف بيزنط ذهبي ثم باعوها بالسعر ذاته إلى غي دي لوسيان. كما تم افتداء ريموند ملك طرابلس بمبلغ 150,000 بيزنط، وتم تحرير كامل جيش القديس لويس من الأسر بمبلغ ثمانمائة ألف دينار[5].

بدأت الحكومات المسيحية في الشرق تضرب العملات الذهبيَّة بدءاً من سنة 1124، وكانت تُستخدم قوالب تم الاستيلاء عليها وذلك لتبدو قطع النَّقد كالنقود المحليَّة، بما في ذلك النقوش العربيَّة المعتادة التي تثني على النبي محمد ﷺ. واستمر المسيحيُّون بإنتاج تلك القطع لمدة 125 سنةً، رغم أنَّه بمرور الوقت تزايدت نسبة القطع المزيفة، وكانت تُضرب عادة من معدن خسيس كالنحاس وتغلف بالذَّهب.

وفي سنة 1250 رُوّع البابا إنوسنت الرابع جراء قيام دُور السَّكّ المسيحية بضرب قطع نقديَّة تمجِّد العدو، أكثر مما روّعه التزوير، ليقوم أخيراً بتطبيق الحرم الكنسي على كل من تورّط في تلك العمليَّة[6]. كان ذلك الإجراء العنيف أمراً لا مجال لتفاديه لأن الأمراء المسيحيين الذين كانت تحرِّكهم النزعة العمليَّة أكثر من النزعة الروحية، أصرُّوا على الاستمرار بإصدار عملات يقبلها المسلمون دون نقاش. واستجابة لمطالب البابا، قام هؤلاء الأمراء باتخاذ خطوة معتدلة تمثَّلت في وضع أختام تضم أقوالاً مسيحيَّة مأثورة مع الاحتفاظ بالكتابات العربيَّة.

ويبدو أن اسم إنوسنت (البريء Innocent) كان لائقاً بالبابا. فالإنسان لا يسعه إلاَّ التساؤل عمّا حدا بالفاتيكان لأن يتوانى عن إدراك الحقيقة ـ أم أنَّه اختار التجاهل. وفي الواقع، فإنَّ تسلسل الأحداث ذاته كان قد وقع في إسبانيا

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وفي كل أنحاء أوروبا وذلك فيما يخص الذَّهب والفضة[7].

لم تكن جهود إِنوسنت كافية لإِرضاء القديس لويس، الذي كان يقود حملة صليبيَّة في الأَرض المقدسة، فقام بإِضافة سلطته إِلى سلطة البابا. وظهرت عملة جديدة تماماً، وهي أغنوس دي Agnus Dei، وكانت تعكس كلاً من التواضع الديني لدى لويس وكبرياءه الفرنسي (المسيح يَقهر، المسيح يَحكم، المسيح يَأمر)، وهي تهليلة الملوك الفرنسيين المعتادة[8].

ننتقل الآن إِلى جهة الغرب عبر المتوسط إِلى مملكة صقليَّة، التي كانت في الفترة ما بين 1211 وحتى 1250 تحت حكم إِمبراطور الإِمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة فريدريك الثاني، حفيد فريدريك باربا روسا العظيم وأحد عمالقة القرون الوسطى. كان فريدريك الثاني يضرب العملات الذهبيَّة بحماس ليستخدمها في إِظهار قوته الاقتصاديَّة.

وُلد فريدريك في صقلية سنة 1194 في السنة نفسها التي تم فيها تتويج والده ملكاً على الجزيرة. ورغم معاناته من وساوس الأمراض[9] إِلاَّ أَنَّه كان صليبياً متحمساً، أسَّس طبقة من الموظفين الإِداريين من الخبراء، وفتح صقلية أمام التجارة الحرَّة، وأحاط نفسه بأعظم مفكري عصره وفرض ضرائب باهظة على رجال الدين ومنعهم من شغل مناصب مدنيَّة، وقام ببناء القلاع في كل أنحاء صقلية، كما أسَّس جامعة في باليرمو لتدريب الموظفين ـ وهي أَول جامعة أوروبيَّة يجري إِنشاؤها برخصة ملكية. لا عجب إِذاً أن يكون فريدريك قد ترك بصماته على النَّقد الذَّهبي في زمانه.

قام فريدريك بالعديد من الأسفار وكان معظم الوقت في حالة حرب مع

البابوية. فقد قاد الحملة الصليبيَّة السادسة سنة 1227، ثم عاد إلى صقلية لمحاربة البابا غريغوري التاسع ـ الذي طبَّق عليه الحرم الكنسي ـ ثم ذهب مرَّة أخرى إلى الأراضي المقدسة حيث أعاد السيطرة المسيحية على القدس. وفيما بعد استعاد الجنود المسلمون القدس ولم تستطع القوى المسيحية السيطرة عليها ثانيَّة، على الرغم من استمرار الحملات الصليبيَّة لمائتي سنة أخرى، وذلك حتى استولى عليها الجنرال البريطاني اللنبي سنة 1917. بعد أن أعلن فريدريك نفسه ملكاً على القدس، عاد إلى صقلية ليدافع عن بلده ضد هجوم بابوي آخر واستطاع تجاوز حرم كنسي آخر (كمرتد وفاسق وعدو للمسيح).

وعندما أسلم غريغوري الروح سنة 1241، مما كان مدعاة لارتياح فريدريك، تم انتخاب بابا جديد يُدعى سونوبالدو فييسكو، واتخذ لقب إنوسنت الرابع. وكان هذا هو الإنوسنت (البريء؟..) الذي منع المسيحيين في الأراضي المقدسة ـ ولو أن هذا المنع جاء متأخراً قليلاً ـ من ضرب قطع نقديَّة عليها كتابات عربيَّة تثني على النبي محمَّد. توقع فريدريك أن يكون هذا البابا صديقاً له، ولكن ذلك كان ضرباً من السذاجة من جانبه، لأن موطن فييسكو الأصلي هو جنوى، العدو اللدود لصقلية ومنافستها العنيدة في مجال الهيمنة الاقتصاديَّة. وسرعان ما اشتبك فريدريك وإنوسنت في حرب جرت فيها محاولة اغتيال فريدريك وأسر ابنه، الذي قضى السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته في السجن. ثم وصل الأمر بصهر فريدريك إلى حد رهن عرش صقلية لدى بعض رجال الأعمال الجنويين مقابل الذَّهب.

لدى وفاة فريدريك كانت صقلية تعمل وفق معيارين متزامنين للذهب. الأَول هو تاري Tari الذي يعود إلى أصول عربيَّة وكان يُستخدم منذ القرن التاسع. ورغم أن التاري كان قد تعرَّض لبعض التخفيض بمرور السنين، إلاَّ أَنَّه اعتباراً من بداية القرن الثاني عشر وفيما بعد، بقي ثابتاً عند قيمة 3/ 1. 16 قيراط من الذَّهب. وقد اعتبرت تلك القيمة في ذلك الوقت أفضل من نقاء

الصوليدوس البيزنطي مما جعل ذلك المعيار راسخاً كواحد من أكثر المعايير ثباتاً في أوروبا. كانت العملات تُضرب بأحجام متعددة يجري تداولها على الأغلب على أساس وزنها لا على أساس قيمتها الفعليَّة. وقد جرى تداول التاري على نطاق واسع بحيث تحوَّل إلى نوع من الوحدة الحسابيَّة يسعَّر على أساسها الكثير من المواد.

وقد اعتبر فريدريك الثاني التاري أقل جلالاً وانتظاماً مما يليق بوطن إمبراطور للإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة في مثل مكانته الرفيعة. وبعد نصر عسكري ضد سكان تونس سنة 1231، ضمن لنفسه إتاوة سنوية ضخمة بشكل عملات ذهبيَّة وتبر الذَّهب من مصادر الذهب في إفريقيا الغربيَّة. وبدأت دور السَّك الإمبراطوريَّة التابعة لفريدريك بضرب عملة ذهبيَّة جديدة سميت أوغستاليس augustalis. ويصف روبرت ساباتينو لوبيز الأوغستاليس، بالنسر الكلاسيكي المطبوع على أحد وجهي العملة وبرأس الإمبراطور المكلَّل بالغار على الوجه الآخر بأنَّه: «وسيلة دعاية مروِّعة»، ونقيضاً دراماتيكياً للتاري الذي لا شكل له[10]. تم ضرب الأوغستاليس على أساس 5,20 قيراطاً وكان يزن 5,2 غرامات، مما جعل قيمته تفوق قيمة الدينار العربي. وسرعان ما أفقدت هذه العملة، ذات التأثير القوي، التاري تألُّقه، وتزايد الطلب عليها بقوة في جميع أنحاء أوروبا والشرق الأدنى.

كانت جنوى تعتبر فريدريك الثاني والصقليين أعداءها الرئيسيين. وقد داعبت أهل جنوى أحلام ضم صقلية إلى مناطق نفوذهم، وبدؤوا بشن حروب متقطعة ضد فريدريك اعتباراً من سنة 1238. استفادت جنوى استفادة مباشرة وهامَّة من انتخاب البابا إنوسنت الرابع سنة 1241 ومن هزيمة فريدريك سنة

1248 ومن ثم وفاته سنة 1250. كان إنوسنت، بشكل خاص، يغدق المزايا على مدينته، ثم شرع يطالب بمملكة صقلية لإلحاقها بحاضرة الفاتيكان.

وقد عوضت جنوى نقص القوة العسكريَّة لديها بسياسات اقتصاديَّة اتسمت بالمغامرة، فبحلول سنة 1250، كانت الصناعات النسيجيَّة مزدهرة في جنوة، واتسع نطاق إنشاء الأبنيَّة الجديدة. كما قامت الأحواض الكبيرة هناك ببناء القسم الأكبر من السفن الألف والثمانمائة التي أبحرت في حملة القديس لويس سنة 1248 تحت قيادة أميرالات من جنوى. ونشطت المشاريع التجاريَّة من كافة الأنواع، حضر المصرفيُّون والتجّار من الدول والمدن الرئيسيَّة في شمالي إيطاليا لإبرام صفقات الأعمال. ويقول لوبيز: «إنَّ تقنيَّة العمليات الائتمانيَّة ذاتها، التي تطورت بثبات خلال السنوات المائة الأخيرة، تمتّعت في تلك المرحلة بدرجة من النضوج لم يقدر لأحد تجاوزها لعدة سنوات قادمة»[11]. كان أهل جنوى قد قرضوا مبالغ كبيرة لكل من القديس لويس والبابا إنوسنت الرابع، ولعبوا دور المصرفيين في كل الحملات الصليبيَّة المهمَّة تقريباً. كما بدأت تظهر تباشير فرصة ضرب عملة ذهبيَّة جديدة في الأراضي المقدَّسة وذلك عندما أذعن الأمراء المسيحيون أخيراً لإلحاح البابا بأن يقوموا بإصلاح نقدهم.

وفي هذه الأثناء، بدأت تتوفر لدى أهل جنوى كميات متزايدة من الذَّهب، فقد بدأ العمل في مناجم ذهب جديدة في بوهيميا، ولكن المصدر الأساسي كان في الذَّهب الإفريقي المتدفق إلى جنوى بصورة رئيسيَّة نتيجة الميزان التجاري الرابح الذي كانت إيطاليا تُبقي عليه مع شمال إفريقيا. ويمكن أن نفهم من السجلات الجنوية أن التجارة مع الشرق أصبحت أيضاً تبشر بالخير، مما جعل قطع النَّقد الإسلاميَّة والبيزنطيَّة تتدفق إلى الشواطىء الإيطاليَّة حيث كانت تُصهر لتُضرب منها عملة جنوية. وفي الواقع، كانت، حتى الصين تشتكي في ذلك الوقت من خسارة الذَّهب عن طريق التجارة الخارجيَّة. وأخيراً، يمكن القول إن فترة الازدهار المستمر والمتين قد تؤدي أيضاً إلى

التخلي عن عادة تخزين الذَّهب. ونحن نعلم أن الإيطاليين كانوا يزودون الخزينة البريطانيَّة بالذهب في منتصف القرن الثالث عشر[12].

وكما كان الإنكليز يدركون في أيامهم الذَّهبيَّة، وكما تعلّم الأمريكيون خلال السنوات التي تلت الحرب العالميَّة الثانيَّة، فإنَّ النَّقد الصحيح يضفي بريقه على صورة الأمة لدى العالم، لذا فإنَّ عملة ذهبيَّة عالية القيمة يدعمها نقاؤها، كانت هي الوسيلة المُثلى بالنسبة لجنوى لتوسيع حدود مكانتها الاقتصاديَّة. وفي سنة 1252، أي بعد سنتين من وفاة فريدريك في صقلية، وعندما صادف أن انخفض سعر الذَّهب أكثر من المعتاد مقارنة بسعر الفضة، بدأت جنوى بضرب عملة ذهبيَّة من عيار 24 قيراطاً، سميت غينوفينو genovino (أو الغنوين genoin). ومما يثير الاستغراب، أن تلك العلاقة غير الوديَّة كانت نتيجتها أن اتخذ أهل جنوى نظام النَّقد الصقلي نموذجاً لهم. فقد تبنّوا أنظمة الأوزان الخاصة بالتاري ثم جعلوا عملتهم تتفوّق في نوعيتها على عملة فريدريك بأن ضربوها من ذهب بعيار 24 قيراطاً. وقد أدَّت كلتا الميزتين إلى تعزيز إمكانيَّة قبول النَّقد الجنوي في صقلية وهو ما كان الجنويُّون يتوقون إليه بشدَّة.

كانت تلك العملة تزن 3,5 غرامات تقريباً، أي أقل بغرام كامل من بيزنط قسطنطين الأصلي، لكن درجة نقائها البالغة 24 قيراطاً أضفت عليها قدراً كبيراً من الجاذبيَّة. فعملة من الذَّهب النقي تزن 3,5 غرامات تعادل تقريباً القوة الشرائية لثلاثة وثلاثين دولاراً سنة 1999، لكن القوة الشرائية للذهب فيما يتعلَّق بالسلع والخدمات كانت في العصور الوسطى أعلى بعدة أضعاف مما هي عليه في وقتنا الراهن. إنَّ القيمة العالية لتلك العملة في عصرها حملت مغزى فاق المغزى الاقتصادي: فقيمتها العالية تلك، أضفت الهيبة والمجد على من أصدرها. كما أن هذه الهالة ازدادت جمالاً لأن تلك القطع النّقديَّة لم تُضرب

أصلاً ليتداولها العامّة، بل اقتصر ذلك التداول على الطبقات الراقية وكبار التجّار[13].

ويمكننا التوصل لفهم طبيعة الغنوين بمقارنته بقطعة نقد ذهبيَّة بقيمة 2,5 دولاراً أملكها أنا (الختم الموجود على القطعة هو «2/ 1. 2» لا «2,5» دولاراً)، يبلغ حجمها حجم قطعة العشر سنتات وقد ضُربت سنة 1865. قطعة النَّقد هذه تعادل 12٪ من الأونصة، أي نفس وزن غنوين القرن الثالث عشر تقريباً. هذه العمليَّة الحسابيَّة البسيطة تكشف لنا ثلاث حقائق مهمّة. الحقيقة الأُولى: هي أن الغنوين كان بحجم قطعة العشر سنتات الحاليَّة في الولايات المتحدة. والحقيقة الثانيَّة: بما أن قوة الدولار الشرائية سنة 1865 كانت تفوق قوة الدولار الحالي بسبعة عشر ضعفاً، تكون القدرة الشرائية لمبلغ 2,5 دولاراً، عندما ضربت القطعة سنة 1865، معادلة للقدرة الشرائية لمبلغ 42,5 دولاراً من الدولارات الحاليَّة. والحقيقة الثالثة: وقد تكون الأَكثر إثارة، أن تقليد ضرب قطعة نقديَّة تزن 3,5 غرامات قد استمر لمدة ستمائة سنة تقريباً.

لقد كان الدافع الرئيسي وراء إِصدار الغنوين في جنوى، دافعاً تجارياً، ولكن أهل جنوى كانوا يدركون أيضاً أن القوتين الاقتصاديَّة والسياسيَّة تعزِّز إِحداهما الأخرى. وبالفعل، فإِنَّه خلال عشر سنين من إِصدار جنوى لعملتها الذَّهبيَّة، أقنعت قوتُها، الحكام اللاتينيين في القسطنطينيَّة بتحويل المزايا التجاريَّة التي كانت حكراً على البندقية إِلى جنوى. استغلت جنوى قاعدتها في القسطنطينيَّة لتوسيع مجال تجارتها ونفوذها إِلى شمال بلاد فارس والقرم والشواطىء النائية للبحر الأسود وبحر قزوين. وسرعان ما بدأ أهل جنوى يغامرون بالتغلغل في مناطق النيل الأعلى ويستكشفون السودان وحوض نهر النيجر.

إنَّ الاحتياجات التجاريَّة تشكِّل السبب الرئيس في أن الخطوات الأُولى باتجاه ضرب العملات الذهبيَّة في العصور الوسطى قد بدأت في مدن كجنوى وفلورنسا، اللتين أصبحتا مركزاً لنشاط اقتصادي ومالي، ولم تبدأ في عواصم الدول مثل لندن وباريس أَو حتى روما. ويؤكد لوبيز أن أَحداث سنة 1252، قد أطلقت أَكبر التفاعلات التسلسليَّة في تاريخ المال.

> . . . إنَّ عودة الذَّهب قد أدَّت إلى أَكثر من توفير الرموز والمسكوكات: فقد خففت من حدة التوتر الذي ألقاه النمو الاقتصادي على كاهل عملة كانت دوماً لا تفي بالغرض. . وكانت أروع دليل على المكاسب الاقتصاديَّة التي تراكمت لدى العالم الكاثوليكي خلال القرنين أَو الثلاثة الماضية، ورمزاً ملموساً لبداية تفوّق الغرب على الشرق ـ لأن العالم الإسلامي وبيزنطة، اللذين كانا يضربان النقود الذَّهبيَّة عندما كانت أوروبا ما تزال قانعة بالفضة، خفَّضا من قيمة نقدهما الذَّهبي أَو توقفا عن ضربه كلياً[14].

لقد كان لوبيز دقيقاً في استخدامه تشبيه التفاعل التسلسلي لوصف ما حدث لاستخدام الذَّهب كنقد بعد إصدار الغنوين. فبعد شهور فقط من قيام جنوى بإصداره، قام الفلورنسيون بإصدار عملتهم المسماة فيروينو دورو Fiorino d'oro، أَو الفلورين، وقد سميت كذلك لأنها كانت تحمل على أحد وجهيها صورة زنبقة fleur-de-lys. وبعد ذلك بوقت قصير، أصدرت بيروغيا وميلانو نقداً ذهبياً، ثم تبعتهما لوكا حوالى سنة 1273. وفي سنة 1284 ظهرت عملة البندقية المسماة دوقية ducat، أشهر العملات الذَّهبيَّة في القرن الثالث عشر وأَكثرها نجاحاً. فعندما سمع شايلوك أن ابنته الهاربة جيسيكا قد «أنفقت في ليلة واحدة ثمانين دوقية» صرخ قائلاً «لقد غرزت خنجراً في لحمي، لن أرى ذهبي مرة أخرى! . . . ثمانون دوقية في جلسة واحدة! . . . ثمانون دوقية؟ . . .»[15] وقد قامت الدوقية بدور معيار للقيمة في كل أنحاء أوروبا

وحافظت على محتواها من الذَّهب حتى هُزمت جمهوريَّة البندقية أمام نابليون سنة 1797[16]. كانت كل تلك العملات تزن 3,5 غراماً وكانت مصنوعة من الذَّهب عيار 24 قيراطاً.

لم يقتصر إِصدار العملات النّقديَّة الذَّهبيَّة الجديدة على إِيطاليا بأي حال من الأحوال. فقد أصدر كل من ألفونسو العاشر ملك قشتالة والملك هنري الثالث ملك بريطانيا عملات ذهبيَّة سنة 1257، ثم تبعهما القديس لويس في الوقت نفسه تقريباً. ومما يؤسف أن البنس الذَّهبي الذي أصدره هنري ملك بريطانيا تم تحديده بقيمة غير مناسبة مقارنة بالفضة، وانتهى بفشل ذريع. وعندما أطلق هنري عملته كانت تساوي عشرين بنساً فضياً، ثم رفعت إِلى 24 بنساً، ولكن الكميَّة ذاتها من البضائع التي كان بإِمكان الذَّهب شراؤها، كان يمكن شراؤها بسعر أرخص وذلك بأن يجري الدفع بالفضة. وخلال ثلاثة أشهر، بدأت الشكاوى تتعالى في المنطقة التجاريَّة في لندن من أَنَّه لا أحد يرغب بصرف العملة الجديدة بالفضة. فالتجار لم يكونوا بحاجة إِلى النَّقد الجديد، أما الفقراء فلم يكن بإِمكانهم إِنفاق كل ذلك المبلغ في صفقة واحدة، أَو حتى في صفقات سنة كاملة. واعتباراً من سنة 1280 تقريباً اختفت آثار تلك القطع النّقديَّة.

ورغم ذلك اشتكى التجار الإِنكليز من أَنَّه كان يتعيَّن عليهم استعمال عملات ذهبيَّة أجنبيَّة في صفقاتهم الدوليَّة وفق قِيَم مرتبطة بالإِسترليني، ولم تكن مربحة على الإِطلاق بالنسبة لهم. وفي سنة 1343، حاول الملك إِدوارد الثالث أن يصدر فلورينا ذهبياً إِنكليزياً كانت قيمته الإِسميَّة أعلى من قيمته في السوق نظراً لمحتوى الذَّهب فيه، ولكن هذا أيضاً قُوبل بالمقاومة في كل مكان، حتى من قِبَلِ أفضل زبائن بريطانيا في الخارج. وعندما رفض الفلورنسيون قبول تلك العملة، وحجتهم الغريبة في ذلك، والتي لم تخلُ من طرافة، هي أن القطع النّقديَّة لم تكن تحمل صورة يوحنا المعمدان. دفعت تلك

الصعوبات بإدوارد إلى إصدار عملة ذهبيَّة جديدة في السنة التالية ذات وزن أنسب دعاها نوبل، كان وجهاها يمجِّدان انتصاريْ إدوارد العظيمين في حرب المائة سنة ضد الفرنسيين: معركة كريسي على البر ومعركة سلويز في البحر. وخلال سنيه الأُولى، تأرجح النوبل ما بين النجاح والفشل، لكنه، وبمرور الوقت، أصبح العملة الذَّهبيَّة الأساسيَّة في بريطانيا حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر[17].

إنَّ الأداء البطيء للإنكليز يعكس إلى حد كبير بطء وتيرة تطورهم الاقتصادي والمالي بالمقارنة مع التطورات الحاصلة في القارة الأوروبيَّة. ففي القرن الثالث عشر، كانت لندن تعتبر مدينة أقل شموليَّة بكثير من مدينتي باريس أَو أوغسبرغ أَو الدول ـ المدن الإيطاليَّة، مما يتناقض بشكل دراماتيكي مع الدور الذي لعبته في العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين. كان عدد سكانها خمسين ألف نسمة تقريباً، أي أنَّها كانت المدينة الوحيدة في إنكلترا، عدا يورك، التي يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة، ولم تتجاوز مساحتها نصف مساحة باريس وفلورنسا والبندقية وجنوى، كما أنَّها لم تكن أكبر من مدينة بروج أَو بولونيا أَو مدينة باليرمو[18]. أما الحسابات العمليَّة المتعلقة بمجال الأعمال والتي أدَّت إلى ظهور الغنوين والفلورين والدوقية، فلم تكن قد شغلت بعد تفكير الشعب الإنكليزي الذي غلب عليه الطابع الإقطاعي الريفي في ذلك الوقت، والسبب الرئيسي هنا هو أن الصفقة الإنكليزيَّة النموذجيَّة كانت أصغر بكثير من الصفقات التي كانت تبرم في القارة الأوروبيَّة. وحتى منتصف القرن الخامس عشر، كان الغرباء ما يزالون يسيطرون على 4 بالمائة من التجارة الإنكليزيَّة البحريَّة، وقد قام المصرفيون الفلورنسيون بتمويل حروب ابن الملك هنري، إدوارد الأَول، وابتاعوا كل إنتاج الصوف من إدوارد الثالث. واستناداً لأحد المصادر، فإنَّ التجار الإيطاليين «مارسوا استبداداً مالياً لم تعرفه لندن قبل

ذلك الوقت، فقد بدا [هؤلاء التجار]، ولمدة طويلة، قادرين على فرض معدلات صرف خاصة بهم بشكل قسري تماماً»[19]. كان ظهور «أمَّة من أصحاب الحوانيت» لا يزال كامناً في المستقبل.

إنَّ ملاءمة الفضة للصفقات الصغيرة، وكمياتها الوفيرة نسبياً، حفظا لها دورها كمعدن رئيسي لسكّ العملة لمدة خمسمائة سنة أخرى، لكنها لم تسترد مكانتها كشكل وحيد من النَّقد المضروب من معدن ثمين في أوروبا. ورغم ذلك، ازدادت، بمرور الوقت، حدة التفاعل المعقد بين المعدنين لتحوِّل هذا التفاعل إلى مصدر لنزاعات وتعقيدات لا نهاية لها. ولم يقتصر هذا التعقيد على المعدنين. فكما سنرى لاحقاً، فإنَّه وبمجرد بدء استخدام الودائع المصرفية والنقود الورقية بأشكالها المختلفة كبدائل مناسبة للقطع النّقديَّة المعدنيَّة، أصبحت العلاقة الملائمة بين هذين الابتكارين الفعَّالين وبين المعدنين الثمينين مثار جدل كبير لم يُحسم حتى هذه اللحظة.

أدَّى اتساع مجالي التجارة وعالم المال إلى تزايد التأكيد على النقود، لكن ذلك لم يكن بتأثير المبادلات المرتبطة بالعرض والطلب فقط. فهناك سحر ينبعث من المال بصورة طبيعية. إنَّ الحسابات الماليَّة تشتمل على تعقيدات الكسور والنِّسب، كما أن امتلاك المال يوحي بالقوة، وهو المفتاح للوصول إلى الأمم الأجنبيَّة. أما خطر فقدان المال فهو يبعث على الإثارة والخوف في آن معاً، كما أنَّه من الصعب مقاومة القوة التي يوحي بها المال. إنَّ تطور التجارة والصرافة في العصور الوسطى قد غذَّى كل تلك المصالح والدوافع.

وفي الأُفق، كان يلوح خطر انقطاع مرعب لهذه العمليَّة يتهدَّد أوروبا،

كانت تلك أَحداثاً متتاليَّة مروعة إِلى حدّ بدت معه النقود للحظة وكأنَّها لم تعد تهم في شيء. ولكن ما من شيء يضفي على النفس ما يشبه الغبطة الغامرة، يمكن له أن يُطمس لمدة طويلة. فسرعان ما عاد بريق الذَّهب يومض عبر الأهوال.

obeikandl.com